

## الفصل الثاني

### المتنبى في عصره

#### ١ - مولده ونشأته

ولد أبو الطيب المتنبى بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ واسمه أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي ، وقد فتح عينيه على الدنيا في حى « كندة » ، وهو حى نزله المهاجرون العرب الذين نزحوا أيام الفتح إلى هذه البقاع ، وهم من أصل يمانى من كندة فسموا منازلهم الجديدة بأسماء منازلهم الأولى للذكرى والحنين ، وفي شعر أبي الطيب ذكريات في هذا الحى من الكوفة وكان مفارقاً له فقال فيما يحن إليه :

أمنسى السكون وحضرموتا والدتى وكندة والسيعا  
كل هذه أماكن بالكوفة ذاتها عرفها المتنبى في نشأته وصباه ، وكانت الكوفة من أجمل بلدان العراق ، وصفها محمد العطاردى بمجلس عبد الملك ابن مروان بقوله :

« والكوفة سفلت عن الشام ووبأها ، وارتفعت عن البصرة وحرها فهى  
مريئة مريعة ، إذا أتتنا الشمال ذهب مسيرة شهر على مثل رضراض (١) الكافور ،  
وإذا هبت الجنوب جاءتنا ريح السواد وورده وياسمينه وأترنجه . ماؤنا عذب  
وعيشنا خصب » .

فأرض هذا وصفها وهذه مزاياها هى التى ولد فيها أبو الطيب وأشرف منها على الدنيا أول نشأته . وقد قيل فى نسبه إن أباه كان يسمى عيدان وكان سقاء بالكوفة يستقى على بعير له .

ولا تثبت صحة ذلك حين نرى أن من أورد هذا الخبر فى نسب المتنبى كان

(١) الرضراض : ما دق من الحصى .

علوياً، أو تنوخياً، وقد وقعت بين أبي الطيب والعلويين من أهل الكوفة والتنوخيين من أهل أنطاكية بالشام حوادث وأضغان كانت سبب جلالاته عن منازل قومه وحالت بينه وبين عودته السريعة إليها ، فلا يبعد أن يكون هذا من قبيل التشيع عليه في نسبه وتعبيره بمهنة أبيه ، وحين تمكن المتنبي من الشعر قال هذا البيت بهجوه به كل باحث في أصله ، وأنه على نباهة ذكره وبجيد فعله جزء صغير من أبيه :

أنا منُ بعضُهُ يُفوقُ أبا البَا حث والنجلُ بعضُ مَنْ نجله  
وهذا البيت من قصيدة يمدح بها أبا العشائر الحمداني ويدافع بها عن شرف نسبه ، وقد شرح العكبري مثل ذلك فقال (١) :

« المعنى : إنه فوق أبي الذي يفتش عن نسبه أى أنا فوق قوم يفتشون عن نسبي ، وأراد ببعضه الولد ، لأن الولد بعض الوالد .

ثم يرى المتنبي لنفسه العذرفى المفاخرة لأنه يدافع عن نفسه ، ودليل ذلك فى البيت الذى يلى :

وإنما يذكرُ الجلودَ لهمُ من نفروه وأنفدوا حيله (٢)  
أما جدته فكانت همدانية صحيحة النسب من صالحات الكوفيات ، ومن طعن فى أبي الطيب زراية بقدر أبيه لحرفته لم يستطع الطعن فيه من جهة أصله الجعفى فكان القاضى أبو الحسين بن أم شيبان الهاشمى الكوفى يثبت له هذا الأصل (٣) .

فالمتنبى إذن صحيح النسب فى عروبته من جهة أبيه وأمه ، وبطونهما كانت معروفة بالكرم والفروسية ، ولها أيام مقروفة بالحمد والذكر كما ورث الإباء والعنجهية عن قومه الذين قال فيهم :

وإني لمن قوم كان نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

(١) ج ٣ ص ٣٦٧ من شرح الديوان .

(٢) نفروه : من المنافرة وأصلها فى الجاهلية الاحتكام إلى حكيم فى أى نفرين أجل وأكرم وأشجع . والمغلوب منفور والمغالب زافر ، وأنفدوا أذهبوا من النقاد .

(٣) راجع « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء » من ص ٣٦٦ - ٣٧٤ طبع القاهرة سنة ١٢٩٤ .

وقد أفرد المتنبي لجدته الكوفية الصالحة مراثاة تعد من روائع الشعر العربي كله أعطانا فيها مبلغ تعلقه بهذه المرأة التي كان لها تأثير كبير في تكوينه الروحي ، وقد صرح في هذه المراثاة بأنه ترك جدته واغترب ملتسماً لها وله رزقاً ومجداً ، وحين وصلت إليه منها دعوة للعودة واستجاب لها بعد عناء وكاد يبلغ الكوفة أنذره أعداؤه بالمتع من الدخول ففضى إلى بغداد وقلبه محترق ملتانع ، وأرسل إليها بأن توافيه إلى حيث يلتقيان لكن الفرحة بهذا الأمل وشدة ما عانت في سبيله قضتا عليها قبل أن يصل إليها ، فتنفجر حزنه وراثاه في قصيدة تفيض بالحبّة والإحساس والذوب في الشوق والأسى :

طلبت لها حظاً ففانت وفاتني      وقد رضيت بي لورضيت به قسماً

## ٢ - صورته الجسمية والروحية

أما صورته الجسمية فأكاد أتخيلها في فتى مهزول الجسم منتفض الأعصاب جدى الملامح سوداوى المزاج وقد رسم المتنبي لنا لمحة منه في قوله :

وإني لأعشق من أجلكم      نحول وكل امرئ ناحل

ووصف شكله في غير النحول بالسقم الذي كان يلازمه مع إلحاح الحزن عليه والسهاد فقال :

جمعت بين جسم أحمد والسقم      م وبين الجفون والتسديد

وكان للمتنبي شباب وفتوة ورونق ووسامة وله شعر أسود كان في صباه غزيراً فبدا وفرة تنوس على أذنيه ، أما الوفرة فقال فيها :

لا تحسنُ الوفرةُ حتى تُرى      منشورة الضفرين يوم القتال

وأما شبابه فبكى عليه بقوله :

ولقد بكيت على الشباب ولتي      مسودةً ولاء وجهي رونقُ

ثم شاب فلم يصبغ شيبه بالحناء وقال :

ومن هوى كل من ليست مموهة      تركتُ لونَ مشيبي غير مخضوب

ومن هوى الصدق في قول وعادته      رغبتُ عن شعر في الوجه مكثوب

وأجد أنه شاب قبل الأوان من قوله :

راعتك رائعة البياض بمفرق لو أنها الأولى لراع الأسمم<sup>(١)</sup>  
لو كان يمكنني سفرتُ عن الصبا فالشيبُ من قبل الأوان نلّمُ  
ولو أتاحت هذه الأبيات لمصور في أيامنا أو مثال نحات منطلق  
الخيال لصور لنا أبا الطيب فيها ، فهي سبيل واضحة لتمثيله وإبراز صورته .

وأما روحه فكانت نبيلة شابة كل عمره ، أفليس يقول فيها :  
وفي الجسم روحٌ لا تشيب بشييه ولو أن ما في الوجه منه حرابُ  
يبدلُ مني الدهرُ ما شاء غيرها وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب  
وقد صور روحه في شعره أصدق تصوير فهي آية جبارة حقاً حين قال فيها :  
وإني لمن قوم كأن نفوسهمُ بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما  
وكل مفاخره تعجّ بالتعظيم والتباهي ، فهو يبدو فيها حيناً بصورة محارب  
شجاع ، وثارة في وقار فيلسوف حكيم ، وآونة في ثياب واعظ رشيد أو وصاف ساحر! ..  
وكان يرفع هذه النفس فوق نفوس البشر حتى يعجب لنفسه ويزهو بما  
ركب في طبعه من المزاي .

وكفاه أنه عاش نبيل الروح لم يرض بالهوان والدون ، وكان يحاسب نفسه  
على الساعات التي تمر به من غير عز فيقول :

فلا غبرتُ بي ساعةٌ لا تعزني ولا صحبتي مهجةٌ تقبلُ الضيما  
وكان يسمو بنفسه إلى الملوك فقال لأبي العشائر الحمداني :  
شاعر المجد خدتهُ شاعر الله ظ كلانا رب المعاني الدقاق  
وقال لكافور :

وفؤادي من الملوك وإن كان لساني يُرى من الشعراء  
لكن شرف الكبرياء الذي جلله والتمرس بالجد في حديثه وعاملته ، نفراً منه  
القلوب التي لم تستطع إلا أن تقر له بميزات لم تكن في أمثاله ، فكان الكبراء  
يقنطون من خيالاته والشعراء يحسدونه على قصيدهه ويضيقون بمكانته وهمته .

(١) في هذا البيت تبدو النظرية النسبية واضحة .

ونسب إلى الجنون حين اشترط على سيف الدولة أن ينشده شعره قاعداً كما نسب عند حساده إلى الغرور والادعاء في مواقف من حياته وشعره .

لكن البادية بدت صريحة في حياته الروحية ، فكان صريحاً وشجاعاً ، معتزلاً بسيفه الذي كان لا يكسب الفضل إلا من مضاربه كما كان على الدوام صاحباً له وحامياً .

ولم يكن يعيب أبا الطيب غير الحرص على المال أو السعي إليه ليحقق به مراد نفسه والمجد الذي ينشده ولكي لا يتخلف عن تقدمه بامتلاك الدنانير ، على أنه ذكر في شعره مذمة لمن يجمع المال . . .

### ٣ - قصة حياته

جاء شعر المتنبي موضحاً لسيرته وحوادثه ، ولم يتفق لشاعر عربي برزت أطوار حياته وعصره في شعره مثلما اتفق لأبي الطيب ، ففي ديوانه صور نفسه ومزاجه وخصائص فكره وضروب الخن التي لازمت زمنه ولايست أهله وحكامه ، ونستطيع أن نقسم سيرته وحوادثه إلى أطوار أربعة :

#### ١ - الطور الأول

نشأ أبو الطيب وشب بالكوفة متقلداً بين الوراقين ، مستجيباً لوعى في تفكيره مبكر ثائر ، متبعاً ما يقع بين يديه من كتب ودفاتر فإذا سمّ القراءة مضى إلى مجالس العلماء يتلقى عنهم أصول الجدل واللغة والبيان ، ثم دلف إلى فريق من قومه اختصوه بالتقدير فأحاط علماً بأبناء الحكام وسياسة الدولة مما كان يزيد في شجونه وأضغانه ، ويتلفت إلى المحظوظين والمنعمين فيجد نفسه صفر اليدين ملموزاً من حاسديه ، لكنه يحسّ العزاء في جدته التي كانت تحبه وتغديه ، ولم يجد بداً من الانطلاق إلى البادية ، لعله يلقي حظاً خيراً ، فلم تتحقق بغيته فيها ، ولم يكتسب إلا مودة ومعرفة ، فازتد إلى جدته يقاسمها الحسرة والضغينة إذ عانت قبله من العلويين ما عانت ، وإن سعوا إليها بعد حين بالهوادة والمعروف .

وفي عام ٣٢٠ هـ راح إلى بغداد دون رضى جدته فشهد ألواناً من الخطوب والأحداث من تنازع الأمر بين الموالى والولاء وتضارب الأهواء بين الشعب والأمراء ، وكان يرجو هنالك نصيبه من الرزق يمدح من يستحق المدح فتأبى على هؤلاء المتنازعين المتربصين ورفض أن يثنى بشعره على أحد منهم ، بل زاد حقه وثارت هواجسه ، وقد صور هذا الشعور في أبيات كثيرة موزعة في قصيده .

وضاقت عليه بغداد بما رحبت فارتحل إلى بادية الشام وجال في مدنها وقراها حتى هبط دمشق بعد عام وهو يرسم الخطط ويبيت في نفسه أموراً خطيرة يحقق بها مجداً وانتقاماً ، فربحلب وأنطاكية واللاذقية حيث احتفى به نفر من الأعيان والكبراء كسعيد بن عبد الله الكلابي ، وأبي المنتصر الأزدي ، وبدر بن عمار الأردني ، ومحمد بن زريعة الطرسوسي وغيرهم . لقد مدحهم بشعره على عادة العرب ولا يجوز أن نشبهه بالشعراء الجوالين كما رأى الأستاذ بلاشير <sup>(١)</sup> إذ سبقهم وتقدم الأكبر منهم ، ولم يكونوا من أنداده . وحظى لدى أولئك الأمراء فظفر منهم بالهدايا والعطاء ، ثم ارتحل عنهم ومضى إلى طرابلس الشام ، فلقى فيها إسحق الأعرور المعروف بابن كيغلف وكان أميناً لا يقدر الشعر قدره ، فأوعز إليه حساد لأبي الطيب بأن يلتمس منه مدحه فاعتذر الشاعر ، وهاج كيد المتطاول فلم يجد أبو الطيب مناصاً من هجوه — إذ حال بينه وبين المسير وسد عليه الدرب — فهجاه بقصيدة لو جمع ما قال الفرزدق والأخطل وبيشار في التشنيع والإقذاع لما رجح على ما في قصيدة أبي الطيب هذه ، وقد جاء فيها من الأبيات التصويرية اللاذعة غير الإقذاع قوله في وصف ابن كيغلف :

وإذا أشارَ محدثاً فكأنه قردٌ يقهقه أو عجوز تظمُ

وفي رواية ثانية أن أبا الطيب وصل به التجوال إلى اللاذقية حيث لقي معاذ بن إسماعيل فرآه حسن السميت فصيح اللسان جدى القول فتحاورا وتبادلا الرأي وقد بلغ الزهو من المتنبي مبلغه حتى زعم معاذ أن أبا الطيب قال له أنا نبي مرسل ، ثم رأى فيه من البراعة والافتداز ما جعله يؤمن بما ادعى من النبوة

(١) مقال بلاشير في « معلمة الإسلام » ٢٦٥ .

والمعجزة ، وإلى هذه الزورة للآذقية أشار أبو العلاء المعري في رسالة الغفران<sup>(١)</sup> ودفع عن شاعره تهمة النبوة بقوله : « لأن نطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان ، وكان قد وصل إلى اللاذقية كلام نسب إلى أبي الطيب يعارض به القرآن » .

وقيل من أجل ذلك حبسه أميرحمص حتى استتاب ، وليس من المعقول هذا الادعاء ، فقد خلط الرواة بين النبوة المزعومة وبين تسمية المنبئ نفسه بالعاوية ، وكان رؤساء العلويين قد حقدوا على أبي الطيب فزعموا أنه ادعى النبوة ، وقد خافوا أن يستهوى القلوب بسحر بيانه ونبل غايته ، فأخذ الزعامة منهم فنبزوه وأهانوه .

إن شجاعة أبي الطيب هي التي جعلته يقتحم الأرض التي ضمت طوائف من العلويين فيهم الفاطمية والباطنية وإلهم أشار بقصيدته الدالية التي استشفع بها :

فلا تسمعن من الكاشحين ولا تعبان بعجل اليهود

والحقيقة السياسية في النبوة المزعومة أن أبا الطيب حين مر بقبائل البادية وأعمال الشام ، وتلقى دعوة القوم بالحفاوة والرضى لما شهدوا من نفاذ علمه ونبل مقصده ورجاحته ، وقد استجاب له بالتأييد منهم بنوكاب ، كان يدعو للعروبة ورد الأعاجم إلى ما كانوا عليه قبل أن يتطاولوا وينشدوا المساواة بولادة أمرهم ، ولا أشك في أنه تزعم حركة عربية ثورية غرضها سياسى لا دينى وقد آل أمره إلى السجن والاعتقال بعد المطاردة والتشريد ، وفي سجنه كان عظيم النفس لكن عض الحديد والجوع أجبراه على التماس العفو من الحاكم في ذنب نواه ولم يفعله ، ويتبين هذا من قوله في القصيدة الدالية :

وكن فارقاً بين دعوى أردتُ ودعوى فعلتُ بشأو بعيدُ

(١) راجع كتاب « أبو العلاء ناقد المجتمع » الطبعة الأولى بدار الفكر العربي بمصر للمؤلف

سنة ١٩٤٧ . والطبعة الثانية بدار المعارف بمصر وبيروت سنة ١٩٦٣ .

وعطف قلب الحاكم على الغريب وأيقن أن الوشاة زوروا أقواله فقال :  
 بيدي أيها الأمير الأريب لا لشيء إلا لأني غريب  
 عائب عابني لديك ومنه خلقت في ذوى العيوب العيوب (١)  
 وقد أفرج عنه الحاكم بوساطة بعض التنوخيين الذين سعى لإيهم المنتهى بالشكر  
 بعد خروجه من السجن .

ولا أبرئ أبا الطيب من هذه الأسباب التي دعت المتقولين لأن ينزوه  
 بالنبوة ويرموه بالبهتان، فلولا الدعوة السياسية التي ظهر بها على القوم مقيماً ونازحاً،  
 متودداً إليهم أو داعياً إلى تكتل وائتلاف بين العرب عامة، لما حاج عليه أعداؤه، لقد  
 نعموا منه أن ادعى النسب العلوي وتثبت به ثم زين له ذكاؤه وكبرياؤه أن يشبه  
 نفسه بالأنبياء والمرسلين حين تجههم له شائته وحساده فقال :

أنا في أمة تداركها اللهُ غريبٌ كصالح في ثمود  
 ما مقامى بأرض نخلة إلا كقام المسيح بين اليهود  
 وما لبث أن خيل إليه أنه أرفع من الملوك والكبراء فقال يريد نفسه :  
 تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالفه حكماً  
 وقال :

وفؤادى من الملوك وإن كان لسانى يرى من الشعراء  
 وكان طموحه وأمله يجتمعان مع ثورة روحه على المنافقين والملفقين فيجد  
 نفسه أفضل منهم ويخاطر في مطلبه الجسيم بالمهج الجسام ليحقق مراده ويقول :  
 أى محل أرتنى أى عظيم أنتى  
 وكل ما خلق الله وما لم يخلق  
 محقر فى همتى كشعرة فى مفرقى

(١) ورد في مقدمة القصيدة الدالية بنسخة الديوان المطبوع سنة ١٨٦٠ للميلاد بوقوف المعلم  
 بطرس البستاني « ووشى به قوم إلى الوالى وقالوا إنه انقاد إلى كثير من العرب وقد عزم على أخذ بلك  
 فاعتقله فكتب إليه « وهذا محض الصواب في الرأى والحقيقة . ص ٣٠ من الديوان .

## ب - الطور الثاني

خرج المتنبي من سجنه لا يلوى على شيء ، وإذا هو بعد سنين يجيء أنطاكية فيمدح أميرها أبا العشائر الحمداني ، ويזור سيف الدولة هذا الأمير ، وأنطاكية في إقطاعه ، فيقدم أبو العشائر شاعره المتنبي لأمر حلب ، وكان المتنبي قد مدح نفرأ من الأمراء ونال عطاياهم ورضاهم .

وبدأت الصلة بينه وبين سيف الدولة منذ ذلك اليوم فدعاه لمديحه وضيافته فقبل المقام لديه بشروط تضمن حريته وكرامته .

كذلك بدأ أبو الطيب يحيا الطور الثاني من سيرته فبقى في حلب من سنة ٣٣٧ حتى سنة ٣٤٥ وفي هذا الطور قال أروع شعره في تصوير المعارك والوقائع ، إذ كان يحضر مع سيف الدولة حروبه لبيزنطة ويبدى ضروبا من البطولة والمغامرة ، إذ كان فارساً مغواراً ، وقد ازدادت معرفته بالسلاح والحرب منذ لزم سيف الدولة .

ووجد المتنبي ضالته في شخصية سيف الدولة وطالما جاب الآفاق باحثاً عن مثلها ليجعلها موضعاً لشعره يصور فيها الإباء والفروسية متجليين في إنسان عظيم حتى وجد أمير أحلامه سيف الدولة الحمداني فأودعه آماله الجسام التي عجز هو عن تحقيقها في وحدة العرب ، فقال له :

إذا العرب العرباء رازت نفوسها فأنت فتاها والمليك الخلاحل  
أطاعتك في أواحها ونصرفت بأمرك والتفت عليك القبائل

لكن أمير حلب خيب - أخيراً - شاعره بتحريض من حساده ، كان في مقدمتهم أبو فراس الحمداني والذامي أبو العباس والسري الرفاء وغيرهم ، لقد نغصت هؤلاء مكانة أبي الطيب عند سيف الدولة فأذوه بالدس والوقية ، وكان لتعاطف أبي الطيب أثر في تنكر الأمير لشاعره الذي قربه وأحبه ومنحه آلاف الدنانير وأقطعته من الملك ما يغنيه ولم يكن الشعر وحده هو الذي ربط بين سيف الدولة وبين أبي الطيب ، فإن آمالاً كباراً في طلب المعالي واستعادة الأجداد والبلاد كانت تجمع بين الأمير والشاعر - وكان الأمير شاعراً أديباً وسياسياً

خطيراً ، بصيراً بالنقد والبيان فوجد في شعر صاحبه وحديثه صدقاً لما يجيش في خاطره ، بل رآه في قصيده مخلداً لمجده فاستخلصه لنفسه وكرمه أجل تكريم . لكن أبا الطيب خالف عن عادة الشعراء فكان يستأذن أميره في إلقاء شعره جالساً فزاد ذلك في غيظ حساده ، ولعل سيف الدولة كان في سره لا يطيق تعاضم المتنبي ومحاطبته إياه بلسان الملوك وكأنه من أنداده ، فلما رآه متمادياً في تعاليه رثى لشعراته الذين فاتهم كثير من تقديره ونعمه ، وإن لم يفهم النيل من أبي الطيب وتسفيه شعره . وكان ثم أشياء تترامى إلى سمعه فلا يأبه لها ، تثور حيناً في نفسه وحيناً تتطامن وتستكين ، حتى رآه يوماً في مجلسه يحاور أبا عبد الله بن خالويه النحوي وما زال الشاعر بالنحوي يردّه عن خطئه ويسفه حتى أفحمه فسحب ابن خالويه — لعجزه عن الرد وحصّره في الحجّة — من كفه مفتاحاً من حديد وأشار به إلى أبي الطيب فنارت في الشاعر عنجهيته وقال له : ويحك أبا الأعجمي ، لم يبق إلا أنت تخوض في العربية !!

ولم يحتمل النحوي الأرعن هذه المهانة فضرب بالمفتاح وجه المتنبي حتى سال دمه على خده وثيابه ، وكان سيف الدولة يسمع ويرى غير عابئ بغضبه ، فلم يجد مناصاً من الانصراف والفراق .

وسواء أحمحت قصة المتنبي مع ابن خالويه<sup>(١)</sup> وغيره من المتنافسين في الكيد له عند أمير حلب ، أم كانت من جملة الأسباب التي زهدت أبا الطيب في البقاء بالشام وجعلته بنفس عن كربه في شعره تلميحاً حيناً وتصريحاً أحياناً ، وفي حضرة الأمير أو في غيبته ، فإن أبا الطيب لم يجد مناصاً من الانطلاق وفي قلبه تموج لواعج الخيرة والألم والحب العظيم !

خرج أبو الطيب من مجلس سيف الدولة ومن بلده مغلوباً على أمره لا لأنه فارق العز والخير والمجد فحسب ، بل لأنه ترك أرضاً تسير فوقها فتاة أحبها من غير أمل ، تلك « خولة » أخت سيف الدولة التي أضناه هواها ، وقد آسفه أن يميل قلبه إلى ما تأبت عليه تقاليد قومها ، فتحامل على نفسه وفارق الرجل العظيم الذي أناط به آمال العروبة ، ومضى من عنده بعد تسعة أعوام قال في خلالها أروع قصائده ، وتصدى من أجلها للحسد والشماتة والعدوان ، وكان ذلك سنة ٣٤٦ هـ .

## ح - الطور الثالث

فارق أبو الطيب حلب ووجهته دمشق لأن حصص التي أوجبها (١) كانت من أعمال سيف الدولة فلم يذهب إليها (٢) بل اتخذ طريقه إلى دمشق وكان عليها من قبل كافور حاكم مصر واليهودى يعرف بابن ملك . فلما نزلها أبو الطيب طلب منه واليه أن يمدحه بشعره أسوة بغيره فرفض وكره المقام بدمشق من أجله ، لكن هذا اليهودى جعل كافور الإخشيدي يطلب أبا الطيب ، فسار إلى الرملة في الجنوب وتلقاه أميرها الحسن بن طغج بالتكريم ، إذ حملة على فرس بموكب ثقيل وقلده سيفاً محلي وأعطاه هدايا غالية ، فدحه أبو الطيب بقصيدة أشار فيها إلى ما لحقه من تهديد ووعيد من الأعداء والحساد .

ولما كتب كافور إلى أمير الرملة في طلب أبي الطيب لم يجد بداً من الرحيل إليه ، وأقبل المنتبى على كافور مصر فاحتفى به ، وأمر له بمنزل ووكل به من يخدمه ويعنى بأمره ، ثم خلع عليه الخلع وطالبه بمدحه ، فاستجاب أبو الطيب على حذر وبخيرية وحل نفسه على أن يقول ما لا يرضيه فقال أول أمره معه قصيدته التي كان مطلعها :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا  
تمنيها لما تمنيت أن تسرى صديقاً فأعيا أو عدواً مداجيا  
ولم يستطع أن يشترط على كافور ما اشترط على سيف الدولة وهو ينشده  
شعره فوقف بين يدي الإخشيدي يلقي شعره وكان كله مدحاً مبطناً بالتهكم  
والاستهزاء ، مواجاً بالهم والأسى .

ووالله ما أدرى مبلغ العنت في نفس المنتبى إذ كان ينظم تلك الأماجيج المموهة أكان ينظر إلى وجهه بالمرآة وهو فاغر فاه بضحك خافت خشية أن يراه عليه أحد أعوان كافور أو عيونه ، حتى إذا فرغ من سبك تلك التصاوير المزورة قطب حاجبيه ليمحو أثر الضحك من على وجهه وسوى ثيابه ولاث عمامته

(١) كان يقول : أحبُّ حصصاً إلى خُنَاصِرَة وكل نفس تحب مَحِيَّابَهَا

(٢) الصبح المنبى .

وأقبل في المجلس الخافل ، على كافور يقول له مادحاً سواده :  
 إنما الجلد ملبسٌ وإيضاضٌ الـ نفس خيرٌ من ايضاض القباء  
 وكم غالى في ذلك المديح ، حتى كاد يصرخ به المديح نافرأ مستجيراً ، لقد  
 كان يقول له وقد سماه أبا المسك :

وبحرٌ أبو المسك الخضمّ الذى له على كل بحر زخرةٌ وعبابُ  
 تجاوز قدر المدح ، حتى كأنه بأحسن ما يثنى عليه يعابُ  
 ولقى أبو الطيب حفاوة من كافور أول الأمر فكان يزهو بنفسه وينال من  
 الشعراء الذين يحضرون مجلس كافور كما كان يفعل في مجلس سيف الدولة ،  
 فكروهه وغضبوا عليه وراحوا يدلون على مواضع الهزل والهكم بشعره المحسود ليدسوا  
 له عند الحاكم والوزير .

وكانت المطامع تغرى أبا الطيب وترين له استغلال كافور واسترضاءه فهو  
 يريد منه ولاية وحكماً ، فوعده بذلك ، وماطل مهيباً شأنه وطموحه ، ولما ألح المتنبى  
 قال كافور لبعض بطانته :  
 هو في الفقر وعدم العون سميت به نفسه إلى النبوة فكيف يكون أمره إذا  
 أصاب الولاية (١) ؟

وكان كافور أديباً سياسياً فلم تخف عليه خافية مما جاء بشعر أبي الطيب  
 لكنه احتمله على مضض لعله يكتسب مودته ويظفر بمدحه ، وتنازعت حياة  
 أبي الطيب وهو في مصر عداوة من الحساد والمتبرمين به لانتقل عما لقي في حلب ،  
 وقد أصابته الحمى فطرحت فراشه حتى شفى وقال فيها قصيدته الميمية التي يقول  
 فيها :

نزلتُ بأرض مصرَ فلا ورأى تخب بي الركاب ولا أمانى  
 ولما صار ود الناس خيباً جزيتُ على ابتسام بابتسام  
 لقد أقام بمصر كارهاً ضجيراً ، وكان يسكن على مقربة من قصر كافور  
 ومن مجلسه ويظهر هذا من قوله :

(١) « المغرب في حل المغرب » لابن سعيد الأندلسي تحقيق الدكتور زكي محمد حسن والدكتور  
 شوقي ضيف والدكتورة سيدة إسماعيل كاشف الجزء الأول طبع جامعة القاهرة سنة ١٩٥٣ ص ٢٠٠ .  
 المنتهى

أرى لى بقربى منك عيناً قريرةً ولكن قريباً بالبعاد يشابُ  
ولما ضاقت به مصر وضاق بها أعدى العدة للرحيل ، وكان موسم العيد  
يستقبله كافور بالفرحة ويوزع فيه الهدايا على كبار جنده وحاشيته ، وكان  
الموسم سانحة مواتية للهروب ، إذ أن كافوراً حال بينه وبين السفر ، لكن المتنبي  
خلص ليلاً فسرى يطلب النجاة ويطوى الفلاة وفر بماله ورجاله وإبله وخيله  
حائراً فى دربه ، أيبكون إلى نجد والحجاز أو يمضى إلى العراق ؟ وطلبه كافور  
فقاته ، وقد غلب الشاعر الحنين إلى موطنه الأول فضرب فى البادية إلى الكوفة ،  
بعد أن أقام بمصر أربع سنوات ، وقبيل انطلاقه منها قال قصيدته المشهورة :

عيدٌ بأية حال عُدتْ يا عيدُ بما مضى أم لأمر فيك تجديد  
أما الأحيّةُ فالبيداءُ دونهمو فليتْ دونك بيداً دونها بيدُ

لكنه وجد بمصر من عطف عليه وشجعه وأراه من نفسه ما استحق عليه  
المدح فى حياته والثناء بعد موته وهو الأمير أبو شجاع فاتك الذى اختصه  
أبو الطيب بأصنى المدح وأعتمق الرثاء فلقد قال فى مدحه :

كفاتك ودُخولُ الكاف منقصةٌ كالشمس قلتُ وما للشمس أمثالُ  
أبو شجاع أبو الشجعان قاطبةٌ هوّلُ نمتهُ من الهيجاء أهوالُ  
ولما مات رثاه بعد خروجه من مصر<sup>(١)</sup> ذاكراً له أعز ذكرى فى قصيدتين من  
أروع شعره وهاجياً كافوراً بمثل قوله :

أيموت مثل أبى شجاع فاتكُ ويعيش حاسده الخصى الأوكع<sup>(٢)</sup>  
وهاجته الذكرى سنة ٣٥٣ إذ كان يسرى الليل ويقاب عينيه فى النجوم  
فقال قصيدته التى أوتها :

حتّام نحنُ نسارى النجم فى الظلم وما سراهُ على خُفّ ولا قدم  
فأخذ يذكر فاتكاً ويرثيه بقوله :  
لا فاتكُ آخرُ فى مصرَ نقصده ولا له خلّفُ فى الناس كلهم  
عدمته وكأنى سرت أطلبهُ فما تزيدنى الدنيا على العدم

(١) يؤلف الدكتور زكى المحاسنى كتابه الجديد (المتنبي فى مصر) وفيه يبين أنحاء البحث  
والدراسة فى قضية « فاتك » المخلص للمتنبي وشعره فيه وعلاقته بسياسة التى كان يرقاب منها كافور .  
(٢) الأوكع : الجاف الصلب .

## د - الطور الرابع

لبث أبو الطيب في مصر أربع سنوات وبضعة أشهر مكرماً هائناً حيناً ،  
ومحسوداً منغصاً أحياناً ، وطامعاً منذ أقبل على حاكمها الإخشيدى كافور بما لم  
يطمع بمثله عند سيف الدولة الذي أغناه بالعطايا والهبات عن التماس المزيد من  
المال . فكان يلمح تارة في شعره إلى ما يريد وتارة يصرح فيقول :

وغير كثير أن يزورك راجلٌ فيرجع ملكاً للعراقيين<sup>(١)</sup> واليا

ويكرر الرجاء بإنجاز الوعد فيقول لكافور :

إذا لم تنط بي ضيعة أو ولايةً فجوذك يكسوني وشغلك يسلب

وبقى أبو الطيب يرجو من كافور أن يوليه صيداء من بلاد الشام أو سواها  
من الصعيد ، وكافور يماطل ويروغ منه بالحيلة والترضية بالذهب ، حتى  
دبّ اليأس في صدر أبي الطيب وسمّ المقام لكن لازمه السقام ومله الفراش ،  
فحدثته نفسه بالرحيل لولا صديقه « فاتك أبوشجاع » الذي كان يعزيه ويسليه ،  
فلما أدركه الموت أعد أبو الطيب كل ما يحتاج إليه في السفر وأرسل إلى كافور  
يستأذن في المسير ، فرفض وجعل يعلله بالبقاء ويسكبه بين إشفاق وخشية من  
التعريض به والتشنيع عليه ، لكن المتنبى كان قد أحكم الخطة : كما قدمت من  
قبل - وفضل العودة إلى بلده .

وكان في صدره من السخط والموجدة أشد مما كان وهو يغادر سيف الدولة ،  
مضى يعاني خيبة فادحة وزندماً أليماً ، وقد تمثل له سيف الدولة الذي علق عليه  
الأمل ، ثم تخيل كافوراً الذي راغ منه وضحكك بالتعليل والمطال ، فعبّر عن غيظه  
وغمه بقصيدة العيد وهجا فيها كافوراً والبلد الذي ضمه ، ومضى حتى دخل البلد  
الذي احتوى قبر جدته وذكريات نشأته وصباه .

ارتدّ إلى الكوفة بعد عراقك عنيف بينه وبين عبيده ومرافقيه وبينه وبين نفسه ،

(١) البصرة والكوفة .

حتى دخل موطن المرأة التي أعدته للحياة الرفيعة ولكن الموت كان أسبق إليها وصار يهوى لمشواها التراب وما ضما ، وها هو ذا يرى الكوفة بعد ستة عشر عاماً (٣٥٠ - ٣٥١ هـ) غير عابئٍ بالشامتين والذين صدوه عن العودة إليها ظلاماً وحقداً ولا مكترث لما ينتظره من مكاييد جديدة .

و شاء تعاضمه أن يقول وهو ينيخ الركب ويلقى أوجه البلد :

فلما أنخنا ركنا الرما ح بين مكارمنا والعللا  
وبتنا نقبل أسيافنا ونسحها من دماء العدا  
لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أنى الفتى  
وأنى وفيت وأنى أبيت وأنى عتوت على من عتا

فغبر أبو الطيب عما في نفسه . وكان يتحدى هؤلاء الذين استكروها طموحه وهواه وجبهوا شوقه للمعالى ونزوعه إلى الحمجد .

وأقام بالكوفة مثقلاً بالذكريات ، تتنازعه مرة إلى مصر حيث يقيم كافور الذى خيب أمله وفاتك الذى أحبه وبرّه من غير مصلحة ولا غاية فقال فيه قصيدة ، وقد صنع تفاحة من الند وضع عليها اسم فاتك فيها قوله :

يذكرنى فاتكاً حلمه وشيء من الند فيه اسمه  
ولست بناس ولمكنى مجرد لى ذكره شمه<sup>(١)</sup>

وتثور به الذكرى مرة أخرى إلى سيف الدولة فيتجاذبه الحنين إليه ويعاوده الأمل الذى عقده عليه بالرغم مما وقع له فى حماه ، فقد نعى له فى مجلسه شماته وكيداً .

ولم ينم أبو الطيب على هذا اللؤم البغيض فقال قصيدة فيها هذه الأبيات<sup>(٢)</sup> :

جزاء كل قريب منكم مللٌ وحظّ كل محب منكم ضغنٌ  
رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللين  
وتغضبون على من نال وفدكم حتى يعاقبه التنغيص والمنن

(١) وفي رواية : « مجرد لى ريجه شمه » .

(٢) تاريخ هذه القصيدة سنة ٣٤٨ للهجرة .

يا من نعت على بعد بمجلسه - كلُّ بما زعم الناعون مرثينُ  
 قد كان شاهدَ موتي قبل دَفْنِهِمُو جماعةٌ ثم ماتوا قبلَ من دَفَنُوا  
 مما أضر بأهل العشق أنهم هَوُوا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا  
 فلما عاد إلى الكوفة عادةُ الشوق إلى صديقه العظيم ، كما أن سيف الدولة  
 لم يصبر على فراق شاعره فنذ بلغه أن أبا الطيب صار إلى الكوفة أرسل ابنه من  
 حلب يدعوه إليه ومعه هدية غالية ، ولعل هذا الأمير الكريم شاء أن يجبر  
 خاطره وهو أدرى بطبع المتنبي وطموحه فتقبل الهدية وأرسل إليه عام ٣٥٢ هـ  
 قصيدته التي قال فيها :

ما لنا كلنا جو يا رسول أنا أهوى وقلبك المتبولُ  
 من عبيدي إن عشت لي ألف كافو ر ولي من نذاك ريفٌ ونيلُ  
 وبقى أبو الطيب يبعث شعره إلى أميره متودداً حامداً ، والأمير يستعجله  
 العودة إليه وهو مترث متردد ، وقد عن له قبل أن يتلقى دعوة سيف الدولة أن  
 يخرج من الكوفة إلى بغداد ليستطلع عن قريب حياة الناس وسياسة الحكم فيها  
 وهو العليم بأسباب الاضطراب ومظاهر النعمة في ذلك العهد ، وكان أول الناقلين  
 على أولئك الأعاجم الراغبين الذين دخلوا في شؤون الدولة ليتقاسموا المغانم فيها والمناصب .  
 واتفق أن كان في بغداد ، حين قدومه عليها ونزوله على صاحبه علي بن حمزة  
 البصرى ، طائفة من حساده ولازميه . والبصرى هذا هو الذي شهد للمتنبي بالخلال  
 المحموده حتى تناقلها الرواة عنه وكان يروى شعر أبي الطيب في محمده وإجلاله .  
 وفي بغداد أقام أبو الطيب كدأبه متعاضداً معرضاً بالوزير المهلبى الذى زين  
 للشعراء واللغويين أن يكيدوا لضيف البصرى في مطارحاته ومجالسه ، فتألبوا عليه  
 بالهجاء وأعادوا إلى الخواطر تثبت المتنبي بادعاء العلوية فراحوا يلزمون نسه من  
 جديد ويصمون بالشح والتقتير .

أما أبو الطيب فزادهم غيظاً بالتأني عليهم وعلى خليفهم العباسى ورجال  
 قصره وحكمه ، مردداً شعره على كل من كان في مجلسه دون تيب ولا تخرج  
 حتى عاد إلى الكوفة ولم يرجع إلى بغداد حتى مات الوزير المهلبى خصمه وظالمه .  
 وبعد عودته ازدادت نغمته على الأوضاع السياسية ومستغلى الحكم من الموالى

والأعاجم ، وارتدت إلى باله صورة سيف الدولة وما لمس من بطولته وكرامته ، وكأنه يستنجزه وعداً . فأرسل إليه قصيدته التي قال فيها :

أنت طول الحياة للروم غاز فقي الوعد أن يكون القفول  
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أى جانبيك تميل  
ما الذى عنده تدار المنايا كالذى عنده تدار الشمول

ولما ترمى إلى سمعه نبأ وفاة خولة أخت سيف الدولة فجرّ فؤاده النبأ وهاجت شجونه وانبعث في نفسه هوى دفين طالما غيبه وطواه ، فأرسل قصيدة طويلة<sup>(١)</sup> في رثائها مدح فيها أخاها على عادة الشعراء وقد غلب عليه فيها تصوير لوعته لموتها فشفت عن حب خفي كشفته الصدمة ، فعبّر عن فجيعة ودمعه وطول ليله من أجلها .

وهذه القصيدة الرثائية الطويلة طالما مرت برواية الباحثين دون التصدي لتحليل أغوارها حتى تناولها بالذكر والتفصيل الأستاذ محمود محمد شاكر - في كتابه النفيس عن المتنبي لذكره الألفية سنة ١٩٣٦<sup>(٢)</sup> - فاستنبط من هذه القصيدة قصة حب كانت رهناً لحياة المتنبي في حلب ، وهي عشقه الصامت المكتوم لأخت سيف الدولة ، ولعله كان من الأسباب التي أحدثت الجفاء بين الأمير والشاعر .

وقد شاء أبو الطيب أن يخرج من بغداد إلى بلاد فارس<sup>(٣)</sup> مصطحباً صديقه وراويته شعره علياً بن حمزة البصرى ، فعلم بخبره أبو الفضل بن العميد وزير عضد الدولة الحسن بن بويه الديلمي مراغماً للمهلبى الوزير ، فأرسل ابن العميد يدعوه لزيارته بأرجان<sup>(٤)</sup> في طريقه إلى فارس ، وكان هذا الوزير كاتباً أديباً طمع في لقاء أبي الطيب ومودته ، فلما وصل إلى أرجان رآها حقيرة متواضعة فأرسل إلى ابن العميد يعلمه بوصوله ، وكان أبو الفضل تواقفاً إليه

(١) تجدها في قسم المنتخبات في هذا الكتاب .

(٢) نشرته مجلة المقتطف في عدد يمتاز للذكرى ، وكان متقناً في أحكامه ودراسه .

(٣) « البتيمة » ص ٨٦ الجزء الأول طبع دمشق .

(٤) أرجان : مدينة في فارس مؤسسها الملك الساساني قباذ الأول . وكثيراً ما ذكرت في

العصور الوسطى على أنها مدينة حل حدود فارس قرب الأهواز . سقطت في أيدي الحشاشين في القرن السابع الهجرى .

فخرج بموكب لاستقباله وكان ذلك عام ٣٥٤ للهجرة. ولما رأى أبو الطيب هذه الحفاوة فاضت قريحته تمدحاً بالمتحن وتعبيراً عما يحالجه من جوى واعتزاز بنفسه فقال الرائية التي أولها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا      وبكاك إن لم يجر دمك أو جرى  
وفيها يقول :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها      جالست رسطاليس والإسكندرا<sup>(١)</sup>  
وجاءت دعوة من شيراز إلى أبي الطيب أرسلها عضد الدولة طالباً زيارته فردد في الاستجابة لكن ابن العميد أغراه بقبولها وأطمعه بما قد يتلقاه من مكرمات. واستقبله رسول من قبل عضد الدولة بالتكريم، ولما طلب أن يسمعه من شعره أنشده القصيدة التي فيها :

فلما أنخنا ركزنا الرماح      بين مكارنا والعللا  
فأحسّ هذا الرسول تعاضم أبي الطيب على اللدلم فنقل ما سمع إلى عضد الدولة الذي داخلته الريبة في ضيفه .

ولما أنشده قصيدته التي استهواه فيها جمال الطبيعة بفارس ومطلعها :  
مغاني الشعب طيباً في المغاني      بمنزلة الربيع من الزمان  
ولكن الفسنى العربيّ فيها      غريب الوجه واليد واللسان  
وجدها عضد الدولة مديحاً ممزوجاً بدم ، لكنه لم يجد بدءاً من أن يرضى على مادحه وضيفه أصناف الطيب والكساء ومعها صرة من الدنانير .  
وقد استطاع عضد الدولة بما أوتي من مكر ودهاء أن يدارى أبا الطيب وهو الذي يعلم طواياه وما يكن لقومه من عداوة وبغضاء<sup>(٢)</sup> فيقال إنه أوعز إلى من

(١) رسطاليس : الحكيم المشهور باسم أرستطاليس أو أرسطو أو أرسطوطاليس . والعرب تصرف في أسماء الأعلام .

(٢) ذكر لي عميد الأدب المعاصر الدكتور طه حسين حين أعدته أني أولف هذا الكتاب عن (المتنى) : أنه ينتوى إقامة حملة جاححة على المتنى لأنه مدح عضد الدولة ، فقلت له ذهب إليهم مغاضباً لارغاباً ، وقد خان العرب أدبه فكان ذلك تأديباً منه لم وتقريماً ، أفليس يقول بكافور :

وشعر مدحت به الكركدن      بين القريض وبين الرق  
وما كان ذلك مدحاً له      ولكنه كان هجواً الورى

يخلصهم منه بعد رحيله وقد أقام ثلاثة أشهر في ديارهم .

ولقد ابتلى الشاعر - الذي لم يسأله الدهر حياً كان - بأن تعرض له وهو بفارس أبو العباس صاحب بن عباد طامعاً في زيارته إياه بأصبهان<sup>(١)</sup> والحصول على مدحه وإجرائه مجرى مقصوده من رؤساء الزمان وهو إذ ذاك شاب وحاله حَوْبَلَةٌ كما قال ؛ ولم يكن استوزرَ بعد كما يصف ذلك أبو منصور الثعالبي في البيئمة<sup>(٢)</sup> وضمن له مشاطرة ماله ، فلم يتم له المتنبى وزناً ولم يجبه عن كتابه ولا إلى مراده فحقد صاحب عليه وأقام الدنيا وأقعدھا يتسقط مثالبه في شعره ، لكنه كما يقول الثعالبي كان أعلم الناس بغيره وروائعه في الشعر والفكر ، ويذكر الثعالبي أن سفرته لدى عضد الدولة نجحت وربحت وحصل منه على أكثر من مائتي ألف درهم .

كذلك خرج أبو الطيب من شيراز مكرماً بأحسن توديع ، وقد أشير عليه باصطحاب الخفراء في عودته إلى بلاده فأبى اعتداداً بنفسه ، فكان أن خرجت عليه سرية من الأعراب<sup>(٣)</sup> - في رواية الثعالبي - فلقى المتنبى مصرعه مع ابنه مُحَسَّدَ وبعض غلمانہ واقسم الأعراب ماله ، وكان قاتلوه من أعدائه المتربصين يحملون له الحقد المر .

وإني لأتصوره مفصول الرأس عن الجسد طريح الفلاة وقد ذهب اللصوص بماله ومتاعه . فأعجب لحياته الضخمة التي كتبت لها هذه النهاية السيئة في ٢٨ رمضان من عام ٣٥٤ تاركة في دنيا العروبة والشعر والكفاح دويلاً بعيداً وذكرأ خالداً ، ما أجدره اليوم أن يكون مشعلاً ليقظتنا الراهنة من أجل مجدنا الكبير وحاضرنا الخطير . وملهماً لعمل الملحمة العربية المنتظرة .

(١) أصفهان : أو أصفهان مدينة مشهورة بفارس كانت فيما سبق حاضرة الصفويين وهي الآن أهم مدن العراق العجمي . فتحها المسلمون عام ١٩ هـ وقيل عام ٢١ هـ . واستردها المسلمون بعد فتنة نشبت فيها في عهد الخليفة المعتز وأصبحت منذ ذلك الحين مدينة هامة وحاضرة إقليم كبير ومركز صناعة وتجارة .

(٢) الصفحة ٨٦ .

(٣) ص ١٦٢ .